

مصطلح «العلمانية» بين النظرية والتطبيق أوروبا نموذجا

*The idiom of «secularism» between theory and practice
Europe as a model*

د. أحمد عيسى^{*}، الجامعة الإسلامية بمنيسوتا، (الولايات المتحدة)

drahmedissa@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/03/26 تاريخ القبول: 2022/06/03 تاريخ النشر: 2022/06/05

ملخص

يتذبذب مصطلح العلمانية بين المقصود الديني، والمعنى السياسي. كما ينشطر بتن التعاريف النظرية، وواقع التطبيق. يعاني مسلمو أوروبا المعاصرة من التعامل المزدوج ذي الوجهتين من قبل مؤسسات العلمانية رغم أنه من المفترض نظريا في العلمانية الأوروبية الحديثة أن تعامل كل الأديان بدرجة واحدة. لمعالجة هذه الإشكالية سيتم البحث استقرانيا ونقديا عن أصل المصطلح، وسمات العلمانية الأوروبية، هل توجد علمانية متشددة، تملصت مما وضعت في دساتيرها، وهل لازالت هناك روااسب وبقايا للمسيحية في السلطة تعكر ما تزعم العلمانية في تحقيقه؟ وكيف تطبق في المجالين الديني والسياسي؟

الكلمات المفتاحية: العلمانية، الدين، السياسة، النظرية والتطبيق، أوروبا.

Abstract

The term secularism fluctuates between the religious and the political meanings. It also splits between theoretical definitions, and the reality of presentation. Contemporary European Muslims suffer from the double-standard treatment by the institutions of secularism, although, in theory, modern European secularism is assumed to treat all religions equally. To address this question, Etymology and characteristics of European secularism will be inductively and critically investigated. Is there a hard secularism that opposed to its constitution, and are there still residues of Christianity in power, that disturb what secularism claims to achieve? How is it applied in the religious and political spheres?

Keywords: Secularism; Religion; Politics; Theory and practice; Europe.

* المؤلف المرسل

مقدمة:

يبدو أن مصطلح «العلمانية»، هو مفهوم، متحول تاريخياً، ومتغير سياسياً. وهناك إشكالية في فهمه واستخدامه، والناظر إلى أوروبا المعاصرة يجد انفصاما بين النظرية والتطبيق. كما يجد درجات من العلمانية؛ بين علمانية متشددة وأخرى متسامحة.

لمعالجة هذه الإشكالية، سيتم البحث استقراءياً ونقدياً عن أصل المصطلح اللغوي، وأساسه التاريخي، وعلاقته بالأديان والسياسة. وهل يعاني مسلمو أوروبا من «علمانيته»، التي يفترض حياديته مع الأديان جميعاً؟ وهل ينظر للفاعلية الأخلاقية الإسلامية، التي يعاد تنشيطها، أنه بدلاً من إعاقته بسبب المناخ العدائي المتزايد في أوروبا، تشجع المجتمعات على التفكير في مساهمة الفضائل غير العلمانية، لتشكيل أوروبا التعددية؟ لقد أثارت زيادة الالتزام الديني بين الشباب المسلمين المولودين في أوروبا قلق الكثيرين. ولا تسعى اللوائح الحكومية الجديدة إلى تقييد الممارسات الإسلامية في المجال العام فحسب، بل تسعى أيضاً إلى تشكيل السلوك الشخصي للمسلمين، وخاصة النساء. تؤرخ القيود العلمانية، المجاهدة والمعاناة الأخلاقية اليومية للمسلمين الناشطين في دوائر الإحياء الإسلامي، حيث إنهم ممزقون بين سعيهم لأسلوب حياة متدين، وتطلعاتهم لمواجهة التمثيل السلبي للمسلمين داخل المجتمع السائد.

أهمية البحث:

تطور مصطلح العلمانية في أوروبا من الفلسفة حتى وصل إلى عمق السياسة، وهو أحياناً يستخدم كسلاح ذي حدين؛ مرة لإخماد صوت دين معين، وأخرى لإعلاء آخر. فكان من المهم إدراك مفهوم المصطلح، وتطوره، وعلاقته بالدين والسياسة. إن العقيدة المسيحية القائلة بأن الله موجود خارج الزمن، قد قادت الثقافة الغربية إلى استخدام العلمانية للإشارة إلى الانفصال عن الشؤون الدينية والانخراط في الشؤون الزمنية. ولكن هل يعني هذا بالضرورة العداء للدين، على الرغم من أن البعض اليوم يستخدم المصطلح بهذه الطريقة. فهل يمكن فهم العلمانية، على أنها «معادية للدين»، أم على أنها «محايدة دينياً»؟

مشكلة البحث:

ما هو المفهوم الاصطلاحي للعلمانية، وهل العلمانية الحديثة في أوروبا، تطبق ما كتب في دساتيرها من كونها محايدة دينياً؟ وهل هناك بعدان؛ ديني وسياسي للمصطلح.

أسئلة البحث:

1. ما هو أصل كلمة « العلمانية » لغويا واصطلاحيا، ومتى بدأ استخدامها تاريخيا في أوروبا؟
2. ما هو البعد الديني للمصطلح؟
3. ما هو البعد السياسي للمصطلح؟

المحور الأول: أصل الكلمة وتاريخها واستخدامها حديثاً:

طبقاً لقاموس أكسفورد الموجز للكنيسة المسيحية، فإن مصطلح العلمانية Secularism «تمت صياغته حوالي عام 1850 للإشارة إلى نظام يسعى إلى ترتيب الحياة وتفسيرها على أساس مبادئ مأخوذة فقط من هذا العالم، دون اللجوء إلى الإيمان بالله والحياة المستقبلية. يتم استخدام المصطلح الآن بمعنى أكثر عمومية للميل إلى تجاهل، إن لم يكن رفضاً، لمبادئ الدين الخارق للطبيعة».⁽¹⁾

وعلى نفس المنوال تسير القواميس الإنجليزية: فقاموس الموسوعة البريطانية يعرف الكلمة بأنها: «الاعتقاد بأن الدين لا ينبغي أن يلعب دوراً في الحكومة أو التعليم أو النواحي العامة الأخرى من المجتمع».⁽²⁾

وقاموس مريام وبستر عرفها بأنها: «اللامبالاة أو الرفض أو الإقصاء للدين والاعتبارات الدينية».⁽³⁾

وهي «الاعتقاد بأن الدين لا ينبغي أن يشارك في الأنشطة الاجتماعية والسياسية العادية للبلد» كما في قاموس كمبريدج.⁽⁴⁾ ومثلها في أكسفورد «الاعتقاد بأن الدين لا ينبغي أن يشارك في تنظيم المجتمع والتعليم وما إلى ذلك».⁽⁵⁾

وإذا رجعنا لقواميس الترجمة، فالمورد ترجمها إلى: العلمانية: عدم المبالاة بالدين، أو بالاعتبارات الدينية، والعلمنة: نزع الصفة الدينية عن نشاط ما.⁽⁶⁾ وقاموس أكسفورد الإنجليزي العربي فقد ترجم كلمة Secular إلى «دنيوي، علماني، نسبة إلى أمور الحياة الدنيا (على نقيض الأمور الدينية)».⁽⁷⁾

وطبقاً لمعاجم اللغة العربية الحديثة فالعلماني (عند الغربيين المسيحيين) من يعني بشئون الدنيا، نسبة إلى العلم (بفتح العين، وسكون اللام) بمعنى العالم، وهو خلاف الكهنوتي.⁽⁸⁾ (العلماني) نسبة إلى العلم بمعنى العالم وهو خلاف الديني أو الكهنوتي.⁽⁹⁾

في بحث العامري المستفيض عن المعنى الصحيح للعلمانية، قال إن النقاد الآن

يتفقون على أن اصطلاح علمانية ترجمة لكلمة غربية المولد والمحضن، ولذلك فليس بالإمكان أن نجد لها جذرا في المعجم اللساني الإسلامي القديم، وأصله في العربية من السريانية. ويعود المصطلح إلى الكلمة اللاتينية saeculum أي: العالم، بمعنى الكون أو الزمن أو العصر، ومن الجذر اللاتيني اشتقت الكلمة الفرنسية siècle أي قرن أو عصر. ويرى العامري أنه مادام مشتقا من «العالم» وليس «العلم»، لذلك فالشكل الأصوب له هو «العلمانية» لا «العِلْمانية»، ولا «العِلْمانية». وقدم تعريفا «جديدا» للمصطلح وهو «العلمانية مبدأ يقوم على إنكار مرجعية الدين أو سلكانه في تنظيم شؤون الناس، بعضها أو كلها، انطلاقا من مرجعية الإنسان لإدراك الحقيقة والمنفعة الكامنتين في هذا العالم»⁽¹⁰⁾

والترجمة الفرنسية لكلمة secularism، هي عادة laïcité، وأحيانا -sécula-risme. ومن هنا يُفهم أنه يوجد مصطلحان للعلمانية اليوم؛ المصطلح الفرنسي (-laïcité) والإنجليزي (secularism). ومن الضروري معرفة أن هذين المصطلحين ليسا مرادفين من حيث المعنى التاريخي والدلالة في العصر الحديث. فالمصطلح الفرنسي ليس مرادفا للمصطلح الإنجليزي. فهما مختلفان من حيث الدلالة اليوم. فالأول يشير إلى الإيديولوجية الحركية العلمانية التي نشأت بعد الثورة الفرنسية وقامت عليها دولة. والثاني يشير إلى «الدينية» بشكل عام كتيار مدني إنساني عام غير ملتزم حركياً.⁽¹¹⁾

ففي فرنسا مع استقرار الجمهورية الثالثة عام 1879، فرضت العلمانية نفسها سياسيا، حيث شكل العلمانيون أغلبية البرلمان، فأصدروا قوانين تحد من تدخل الكنيسة في الشؤون العامة خاصة التعليم والأحوال الشخصية. وقطعت العلاقات الدبلوماسية مع الفاتيكان عام 1904. ومع قيام الجمهورية الرابعة سنة 1945، كرس الدستور الفرنسي عام 1946 علمانية الدولة بصورة نهائية. ولكن لم تذكر كلمة «العلمانية» laïque إلا في المادة الأولى من دستور الجمهورية الخامسة عام 1958 والذي جاء فيها:

«فرنسا جمهورية لا تتجزأ، وهي علمانية، وديمقراطية، واجتماعية. وتكفل مساواة جميع المواطنين أمام القانون دون تمييز يقوم على الأصل أو العرق أو الدين. وتحترم جميع المعتقدات.»

"La France est une République indivisible, laïque, démocratique et sociale. Elle assure l'égalité devant la loi de tous les citoyens sans distinction d'origine, de race ou de religion. Elle respecte toutes les croyances".⁽¹²⁾

ولكن ما يحدث في فرنسا تجاه المسلمين، من تضيق، وغلق للمساجد، وطرد الأئمة، ومنع الزي المرتبط بالمسلمات، يناقض الدستور العلماني المذكور أعلاه. وأخيراً جاءت القوانين الفرنسية الجديدة «مكافحة الإسلام الانفصالي» تنص على فرض رقابة على المساجد والجمعيات المسؤولة عن إدارتها، ومراقبة تمويل المنظمات المدنية التابعة للمسلمين، ويفرض قيوداً على حرية تعليم الأسر أطفالها في المنازل، فضلاً عن حظر ارتداء الحجاب في مؤسسات التعليم قبل الجامعي.

وعلى النقيض من فرنسا، يوجد وجه آخر للعلمانية، تراه في بريطانيا (وإن كان كلاهما يؤدي لنتيجة متشابهة، وهي التضيق على المسلمين). طبقاً لموقع مكتبة البرلمان البريطاني⁽¹³⁾، فإن العلاقة بين الكنيسة والدولة تأخذ أشكالاً مختلفة في إنجلترا واسكتلندا. فبينما الملكة هي «الحاكم الأعلى» لكنيسة إنجلترا، فهي عضو في كنيسة اسكتلندا. والأساقفة الأنجليكان هم أعضاء في مجلس اللوردات. وبينما تتطلب تدابير (قوانين) كنيسة إنجلترا إشرافاً برلمانياً، فإن كنيسة اسكتلندا تتمتع بالحكم الذاتي تماماً.

تاريخياً، اتخذت كنيسة إنجلترا شكلها الحالي في ثلاثينيات القرن الخامس عشر عندما تخلى الملك هنري الثامن عن السلطة البابوية. حتى عام 1919، كانت الكنيسة تعتمد على برلمان المملكة المتحدة للتشريع الذي يحكم شؤونها. ثم نقل التشريع السلطة إلى «الجمعية الوطنية» الجديدة، التي تولت سيطرة أكبر على شؤون الكنيسة. تم استبدال هذا بالمجمع الكنسي العام في عام 1969.

فهنا نرى أن علمانية بريطانيا كدولة لها وجه مسيحي. وبالتالي لا تعطي نفس الوزن لمواطنيها من المسلمين. مثلاً لما أراد المسلمون إنشاء مدارس إسلامية، على منوال مدارس الكنيسة، وجدوا صعوبة، وتضييقاً، وعنصرية.

وأول من استعمل كلمة «سكيبولريزم» بأحد معانيها المعاصرة في أوروبا هو الإنجليزي جورج هوليووك (George Holyoake) 1817-1906، عندما أورد المصطلح وصاغه لأول مرة في صحيفته الدورية (The reasoner) في 25 يونيو 1851، للتعبير عن مذهبه السياسي الداعي إلى فصل النظام الاجتماعي عن السلطان الديني. وبخلاف دلائلها المعاصرة، فإن المصطلح الجديد كما تم نشره لأول مرة، لم يشير إلى أي انتشار عام للعلماني في الدولة أو المجال العام، أو لغياب الدين. بدلاً من ذلك، تم اختراع العلمانية كبديل للإلحاد. أشارت العلمانية على وجه التحديد إلى تطور حركة «إيجابية» للفكر الحر والعقيدة، ودافعت عن وحدة كنسية جديدة تضم عناصر ومشاركين

علمانيين ودينيين.⁽¹⁴⁾

كانت كلمة «علمانية» في البداية، لا تتناقض في الأصل مع الدين، بل مع الأبدية. وهكذا وقفت العلمانية على ما يحدث في الزمن الدنيوي على عكس الخلود، وإلى الوجود الزمني مقابل الوجود الروحي. ومنذ أواخر القرن الثالث عشر، كانت العلمانية إشارة إلى رجال الدين (الروم الكاثوليك) الذين عاشوا خارج العزلة الرهبانية وخدموا الناس العوام (العلمانيين)، بخلاف الرهبان المنعزلين. ولكن فقد هذا المصطلح عمومًا هذا المعنى بحلول منتصف القرن التاسع عشر حيث يمثل ما يتعلق بـ «هذه الحياة» مقابل حياة أخرى، ووسيلة تحسين «هذه الحياة».⁽¹⁵⁾

في العصور الوسطى في أوروبا كان هناك ميل قوي لدى المتدينين إلى احتقار الشؤون الإنسانية، والتأمل في الله والحياة الآخرة. كرد فعل على هذا الاتجاه في العصور الوسطى، أظهرت العلمانية، في عصر النهضة، نفسها في تطور الإنسانية، عندما بدأ الناس في إبداء المزيد من الاهتمام بالإنجازات الثقافية البشرية وإمكانيات تحقيقها في هذا العالم. كان المصطلح قيد التقدم خلال مجمل مجرى التاريخ الحديث، وغالبًا ما يُنظر إليه على أنه معادٍ للمسيحية ومناهض للدين. لكن في النصف الأخير من القرن العشرين، بدأ بعض اللاهوتيين في الدفاع عن المسيحية العلمانية. واقترحوا أن المسيحية لا ينبغي أن تهتم فقط بالمقدس والعالم الآخر، ولكن يجب أن يجد الناس في العالم فرصة لتعزيز القيم المسيحية. أكد هؤلاء اللاهوتيون أن المعنى الحقيقي لرسالة «المسيح» يمكن اكتشافه وتحقيقه في الشؤون اليومية للحياة العلمانية.⁽¹⁶⁾

لقد كانت الثورة الفرنسية وطريقة معالجتها لدور الكنيسة في الدولة، النموذج الذي اعتمد عليه واحد من أشهر العلمانيين في العالم الإسلامي مصطفى كمال أتاتورك في تركيا. رأى أتاتورك أن المؤسسة الدينية الإسلامية هي العدو الذي يجب القضاء عليه، مثلما رأى الثوار في فرنسا الفاتيكان عدوا لثورتهم، صادر أتاتورك ممتلكات المؤسسات الدينية وحظر الفتاوى الدينية، كما فرض رؤية معادية للكاثوليكية في تدريس تاريخ أوروبا، استلهاً من الأفكار العلمانية للثورة الفرنسية والبروتستانتية الأمريكية.⁽¹⁷⁾

ويرى البعض أن التعريف والحكم المستمر لكل من «العلماني» و«الديني» يعتمد على المكان، بمعنى أنهما يتشكلان — من خلال مجموعة محددة من العلاقات السياسية والاجتماعية، والأيديولوجيات، والممارسات في مواقع معينة.⁽¹⁸⁾

وقد استخدم بعض المفكرين مصطلحات: «اللا دينية»، خاصة في الكتابات الإسلامية الحديثة، وهو تعبير لا يستقيم أن يتخذ مقابلاً لأصل الكلمة، فهو لا يشير

مباشرة للدين. وهذا بمثابة حكم على المذهب وليس ترجمة للاصطلاح. واستخدم آخرون «الدينوية» ولكن المصطلح الأعجمي أقرب إلى العالم منه إلى الدنيا، والعلمانية لم تطرح نفسها بديلاً أو عدواً للآخر. ومثله مصطلح «الدهرية» أو «الدهرانية».⁽¹⁹⁾

وهناك استخدامان متناقضان؛ أحدهما استخدامه من قبل غير العلمانيين، بمعنى اللادينية أي الكفر، والآخر بمعنى النسبة للعلم (العلمانية) بكسر العين. وهناك من يفهم من بعض العلمانيين أنها تعني الضغط والتضييق على الأديان أو بعضها. وهناك من يعتقد منهم أنهم منتسبون للعلم، وأن الدين لا يلتقي مع العلم.

ومما يدحض فرضية أن العلمانية بمعنى العلم ضد الدين، خاصة الدين المسيحي، أو أنها نبعت من الانفصام بينهما، أن هناك علماء لهم دينهم، بل أن الفريد نوبل (1833-1896) المهندس ومخترع الديناميت والكيميائي السويدي، والذي سميت جائزة نوبل باسمه؛ كان مسيحياً ملتزماً وعضواً في الكنيسة اللوثرية السويدية.

وكشف استعراض جوائز نوبل بين عامي 1901 و2000، أن 654 من أصل 719 فائزاً ينتمون إلى 28 ديانة مختلفة. معظمهم (65.4%) حددوا المسيحية بأشكالها المختلفة على أنها تفضيلهم الديني. بينما ثبت صعوبة فصل الكاثوليك عن البروتستانت بين المسيحيين في بعض الحالات. وتشير المعلومات المتاحة إلى أن المزيد من البروتستانت شاركوا في الفئات العلمية، وأن المزيد من الكاثوليك شاركوا في فئتي الأدب والسلام. ويشكل الملحدون واللاأدريون والمفكرون الأحرار 10.5% من إجمالي الفائزين بجائزة نوبل. خاصة في فئة الأدب، ويمكن التكهن بأن هؤلاء لديهم رغبة أكبر في التحرر تماماً من أي ارتباطات دينية رسمية حتى يتمكنوا من التعبير عن الأفكار العالمية بشكل أفضل. وهناك أكثر من 20% من إجمالي جوائز نوبل ينتمون للعقيدة اليهودية.⁽²⁰⁾

المحور الثاني: البعد الديني لمصطلح العلمانية:

إذا كانت العلمانية تعني في المقام الأول عدم كفاءة الكنيسة في الشؤون العامة والمجال الزمني، فإنها تتضمن بالمقابل عدم كفاءة الدولة في المجال الروحي. فالحرية الدينية شرط أول ومطلق، وبانتفاها تنتفي العلمانية من أساسها. والدولة العلمانية ليست دولة لا دينية، بل هي دولة لا طائفية. ليست هي الدولة التي تنكر الدين، بل هي الدولة التي لا تميز دينا على دين.⁽²¹⁾

أي نظرياً فالدولة لا تميز دينا، وتترك المجال لحرية العقيدة. لكن تطبيق ذلك في أوروبا تشوبه الشوائب.

يؤكد «بن رايان» وهو عضو وباحث في جمعية الكتاب المقدس البريطانية، أن أوروبا قارة مسيحية. لكنها ليست قارة مسيحية فقط، إنها قارة مسيحية، لكنها أيضًا قارة «يونانية»، وقارة ديمقراطية؛ أي أن المساحة التي نسميها «أوروبا» ليست في الحقيقة شيئًا جغرافيًا. لا توجد حدود لأوروبا، جغرافيًا. وما يحدد حدود الفضاء الذي نسميه أوروبا هو شيء ثقافي وفكري. إنها فضاء يتم تعريفه من خلال المسيحية والفلسفة اليونانية وعدد من الحركات الثقافية والفكرية الأخرى.

لكن «بيتر مارجري»، أستاذ الإثنولوجيا (علم الأعراق) الأوروبي في جامعة أمستردام. يرى رأيًا آخر، بأنه يمكن تعريف أوروبا تاريخيًا على أنها قارة مسيحية، لكن هذه التسمية لا تكون دقيقة بالضرورة اليوم. ويؤيد ذلك الكثيرون بحجة أن أوروبا أصبحت بشكل متزايد قارة علمانية، موطنًا لعدد متزايد من الملحدين، واللاأدريين⁽²²⁾، والإنسانيين،⁽²³⁾ وغيرهم.

ولكن يعتقد آخرون أنه من الخطأ الاعتقاد أنه نظرًا لأن أوروبا أصبحت أكثر علمانية، فقد أصبحت أيضًا «أقل مسيحية». اعتاد الأكاديمي «إيمانويل ليفيناس»⁽²⁴⁾، أن يقول إن «أوروبا هي الكتاب المقدس واليونانيون». بعبارة أخرى، ما يحدد الفضاء الفكري الأوروبي هو تاريخه المرتبط بالفلسفة اليونانية والإمبراطورية الرومانية وبالطبع المسيحية، فالمسيحية ستكون موجودة دائمًا. إنها متجذرة في أوروبا. ويدعي «راين» أن نوع العلمانية التي في أوروبا اليوم هي علمانية مسيحية إلى حد كبير، ولن تصبح أوروبا مساحة غير مسيحية لمجرد أن الناس أنفسهم لم يعودوا مسيحيين، فالمسيحية جزء لا يتجزأ من أوروبا.⁽²⁵⁾

يهيمن الصليب على أعلام كل من بريطانيا وأيسلندا والنرويج، والدنمارك، والسويد، وسويسرا. وأوروبا التي تتغنى بفصل الدين عن السياسة هي نفسها غارقة فيها، فالأحزاب الديمقراطية المسيحية في الغرب تحظى بنفوذ سياسي واسع وليس بالأمر الغريب أن تكون هي الأحزاب الحاكمة مثلما في ألمانيا وإيطاليا. أما في بريطانيا فاللقب الرسمي للعاهل البريطاني هو حامي الدين، فأين دين يحميه؟ إنها الأنجليكانية بالطبع، والعاهل البريطاني ينتمي دستوريًا إلى الكنيسة الرسمية، وأساقفة تلك الكنيسة هم يحكم مناصبهم الرفيعة أعضاء في مجلس اللوردات الذي هو أحد مجلسي التشريع البريطاني، بل هو المجلس الأعلى. وأعضاء مجلس اللوردات بعضهم من النبلاء بالوراثة، وبعضهم من الممثلين الروحيين ورجال الكنيسة، والصنف الثالث من ذوي الخبرة الواسعة. حاليًا يجلس 26 أسقفًا من كنيسة إنجلترا في مجلس اللوردات: رئيس أساقفة كاتدرية، ورئيس أساقفة يورك، وأساقفة لندن، ودورهام، ووينشستر، ثم 21

من أساقفة الأبرشية بترتيب أعمارهم (يوجد أربع نساء).

وحتى عام 1858 لم يكن من المسموح به لغير المسيحي المعمد أن يكون عضواً في البرلمان، ومنع روتشلد ثلاث مرات من أن يتبوا مقعداً في البرلمان لكونه يهودياً رغم فوزه في الانتخابات. ويخضع الملك أو الملكة في المملكة المتحدة لسلطة الكنيسة، كما تجلّى في إجبار الملك إدوارد الثامن عام 1936 على التخلي عن العرش. فلم تجز أسقفية كاتربري زواجه من سيدة مطلقة، رغم أن القوانين العلمانية تجيز الطلاق ولا تمنع في زواج المطلقة. والكنيسة في هذا المثال نقضت السلطة العلمانية والسلطة الملكية.

ماذا يخفى المستقبل للمسيحية الأوروبية؟ هل الكنيسة المسيحية محكوم عليها بالانهيار تحت وطأة العولمة والعلمانية الغربية وطوفان المهاجرين المسلمين؟ هل أوروبا أو «قارة الله»، على وشك أن تصبح «أوعرابيا» Eurabia؟

على الرغم من أن العديد من النقاد يتوقعون مثل هذا السيناريو بصوت عالٍ، ولكن بعضهم يفند عيوب هذه الحجج، لا شك أن هناك توترات حالية، ولكن الخطاب المحموم حول أوروبا التي يهيمن عليها المسلمون يستند إلى أساطير ملائمة سياسياً، مثل إن أوروبا تتعرض للخطر بسبب فيضانات المهاجرين المسلمين، وانفجار معدلات المواليد بين المسلمين، وزوال المسيحية الأوروبية. ولكن المسلمين ليسوا بأي حال المهاجرين الجدد الوحيدين في أوروبا. فيتدفق المسيحيون من إفريقيا وآسيا وأوروبا الشرقية أيضاً إلى البلدان الغربية، حاملين معهم إيماناً حيويًا وحماسيًا يساعد على تغيير وجه المسيحية الأوروبية. إن كلاً من المسيحية والإسلام يواجهان صعوبات حقيقية في البقاء داخل الثقافة العلمانية في أوروبا. ولكن بدلاً من الاختفاء، فقد تكيف كلاهما ولازال يتكيف. لا شك أن الكنائس في حالة تدهور، ولكن هناك أيضاً مؤشرات واضحة على استمرار ولاء المسيحيين لدينهم، حتى مع انهيار المؤسسات.⁽²⁶⁾

المحور الثالث: البعد السياسي:

وفيما يتعلق بالعلمنة، أي ما تفعله العلمانية، فقد عرّفها عالم الاجتماع بيرغر بأنها «العملية التي يتم بها تحرير قطاعات المجتمع والثقافة من هيمنة المؤسسات والرموز الدينية».⁽²⁷⁾ وعلى النقيض من ذلك، يعرف الفيلسوف ماكنتاير العلمنة بأنها «الانتقال من المعتقدات والأنشطة والمؤسسات التي تفترض مسبقاً معتقدات من نوع مسيحي تقليدي، إلى معتقدات وأنشطة ومؤسسات من نوع إلحادي».⁽²⁸⁾

ولكن استخدام مصطلح «العلمانية» أحياناً يركز بشكل كبير على معناه «السياسي» للإشارة إلى الفصل النسبي بين الدولة والدين، وعدم التمييز بين الأديان

والضمانات المقدمة فيما يتعلق بحقوق الإنسان للمواطنين، بغض النظر عن عقيدتهم. وسعى الفيلسوف تايلور، إلى توضيح معنى العلمانية، بطريقة تؤكد الطبيعة الصعبة والمتنازع عليها لتعريفها. على سبيل المثال، يجادل بأن العلمانية السياسية تتطلب السعي وراء أربع مصالح عامة متميزة في صراع جزئي مع بعضها البعض:

- 1 - ممارسة الحريات الدينية (بما في ذلك حرية عدم الإيمان).
- 2 - لا ينبغي للدولة أن تكون منحازة لصالح أي تسمية أو دين واحد.
- 3 - يجب أن تكون الثقافة السياسية شاملة، فيشارك الجميع، بما في ذلك الجماعات الدينية، في تحديد الهوية السياسية للمجتمع، وكيفية تحقيق توافق في الآراء بشأن توزيع الحقوق والامتيازات.
- 4 - يجب أن تسعى الثقافة السياسية إلى تعزيز العلاقات المتناغمة والحفاظ عليها بين جميع المجموعات، بما في ذلك الجماعات الدينية.⁽²⁹⁾

وهذا ما يطالب به «المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث». فقد أصدر بياناً عن موضوع العلمانية، جاء فيه أن الالتزام بالنظام العلماني الذي يحكم المجتمعات الأوروبية تترتب عليه التزامات للمجموعات الدينية بعدم ممارسة العمل السياسي من خلال المؤسسات الدينية. كما تترتب عليه التزامات من الدولة، أهمها حماية حرية الاعتقاد والممارسة الدينية. ومسلمو أوروبا في هذا المجال يريدون أن تعاملهم الدولة كما تعامل بقية الأديان الأخرى، وهذا تكون العلمانية بمثابة إطار عام ينظم أسس العلاقات في المجتمع، ولا تكون علمانية منافسة أو مصادمة للأديان فيما هو من خصوصيتها.⁽³⁰⁾

في الخطاب السياسي والشعبي حول الهجرة والاندماج، يشار إلى أوروبا (اعتماداً على السياق) على أنها علمانية بشكل رئيس، أو مسيحية في الأساس. وحتى لو كانت أقلية فقط من السكان في العديد من دول أوروبا الغربية تمارس دينها فعلياً، فإن الكثيرين يستمرون في التعرف على المسيحية باعتبارها تقليداً ثقافياً، دون المعتقدات والممارسات التي يرتبط بها المرء عادة بهوية دينية.

باستخدام مجموعة من المقابلات النوعية في بريطانيا وهولندا والدنمارك وأيرلندا، وُجد أن الهوية المسيحية مرتبطة بشكل إيجابي برؤية الهجرة كتهديد للهوية الوطنية، في حين أن الذهاب إلى الكنيسة يرتبط سلباً بالمواقف المناهضة للهجرة. هناك أليتان محددتان تشرحان هذه النتيجة. أولاً، يمكن أن تشير كلمة «مسيحي» إلى التراث الثقافي القومي أو العرق الأبيض بدلاً من الإيمان. ومن ثم فإن أولئك الذين يعتبرون

مسيحيين، رغم ضبابية الكلمة واتساعها، هم في المتوسط أكثر عرضة لأن يكونوا قوميين أو كارهين للأجانب. ثانيًا، نظرًا لأن رواد الكنيسة سيكونون أكثر تعاطفًا مع الدين بشكل عام، فإنهم يميلون أيضًا إلى أن يكونوا أقل سلبية تجاه المسلمين والأقليات الدينية الأخرى.⁽³¹⁾

وأرى أن الأمر متشابك، فأعداد الذين يرتادون الكنائس قلَّ بدرجة كبيرة، وبالتالي يوجد خارج الكنيسة متدينون يحترمون الأديان الأخرى. ومن ناحية أخرى فليس كل «المتدينين» المسيحيين على درجة واحدة، ففهم المتعصب الذي يعادي الأديان الأخرى. وكما نعلم فهناك مجموعات قومية «بيضاء» متطرفة، تطالب بطرد المسلمين من أوروبا.

ولقد أنتجت الدراسة المقارنة للعلاقات بين «الكنيسة والدولة» نصيها من النماذج المختلفة. فهناك خمسة نماذج: مؤسسة قوية (اليونان، صربيا، إسرائيل)، ومؤسسة ضعيفة (إنجلترا، اسكتلندا، النرويج، الدنمارك)، ومؤسسة التعددية (فنلندا)، وعدم التأسيس مقترنًا بإضفاء الطابع المؤسسي العام على التعددية الدينية (هولندا، السويد، ألمانيا، النمسا، بلجيكا، إسبانيا)، والفصل الصارم (فرنسا، الولايات المتحدة). وهناك ما يميز بين «العلمانية المطلقة» (فرنسا)، و«العلمانية المعتدلة» (السويد وهولندا)، و«التعددية الدينية المعتدلة» (بريطانيا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا واليونان)، و«التعددية الدينية المطلقة» (لا توجد أرض أوروبية فيها ذلك حتى الآن).⁽³²⁾

ويلاحظ في هذا السياق أن العلمانية الغربية ليست لونا واحدا، أو درجة واحدة، حينما نأتي لتطبيقها. فهناك علمانية صلبة (متشددة)، وأخرى رخوة (محايدة أو متسامحة)، انظر شكل 1.⁽³³⁾

فالعلمانية الفرنسية مثلا تتخذ موقفا متشددا من الدين بشكل عام، بخلاف العلمانية البريطانية والألمانية التي تتخذ نهجا أكثر تصالحا وأكثر حيادية تجاه الأديان. وعلى سبيل المثال، فإن الملكة في بريطانيا هي رأس الدولة ورأس الكنيسة في ذات الوقت. وفي ألمانيا يقود الحزب المسيحي الديمقراطي الائتلاف الحاكم، وتُحصل الدولة ضرائب كنسية طوعا ممن يقبل ذلك. أي أن الدين له دور في تكوين الأحزاب الألمانية، وفي الأنشطة التي تقوم بها الدولة في ألمانيا. كذلك تختلف الأحزاب والتيارات الدينية، والتيارات ذات المرجعية الدينية فيما بينها من حيث قبولها بالآخر ومدى استعدادها للانفتاح والمشاركة في عملية سياسية متعددة الأطراف، وكذلك درجة إيمانها بمبادئ التعددية والديمقراطية.

وقد حدث تغيير كبير في تركيا، فيرى مؤيدو التقارب في تركيا نموذجاً للدولة العلمانية التي نجح فيها حزب «العدالة والتنمية» التركي في تغيير مفهوم العلمانية بها، من علمانية معادية للدين إلى علمانية أكثر تسامحاً وانفتاحاً مع المتدينين، مع الحرص في ذات الوقت على احترام الحريات الفردية. وبهذه الطريقة تمكن الحزب من الحصول على أغلبية أصوات الناخبين في تركيا منذ وصوله للحكم عام 2001.

شكل 1: تصنيف العلمانية (بتصرف من المرجع 20)

الملاحدون	اللاأدريون	الربوبيون	المتدينون الليبراليون	سلطة دينية
وعي الحالات الفردية				
علمانية				لا علمانية
متشددة	متسامحة			
المؤسسات والهيكل الوطنية				
روسيا الصين	فرنسا الهند	أمريكا	كندا أستراليا تركيا	بريطانيا الدنمارك إيران

ويستخدم مصطلح العلمانية على نطاق واسع كاختصار للأيديولوجية التي تشكل المجتمع المعاصر دون الرجوع إلى الإله. ولكن، وفقاً لغرايم سميث، تمثل العلمانية أكثر من ذلك بكثير. حيث يقدم إعادة تقييم جذرية لمفهوم العلمانية وتاريخها، بدءاً من الإغريق وانتهاءً بالحدثة والفترة المعاصرة. ورغم أنه غالباً ما يكون الافتراض القائل بأن الغرب أصبح علمانياً بشكل متزايد أمراً لا جدال فيه، إلا أن سميث يميز نوعاً مختلفاً من المجتمعات: مجتمع مستوح من إرث تاريخي يكون منطقياً فقط عندما يُدرك أنه ديني. ويجادل أن فكرة العلمانية ولدت من المسيحية. فيقول إن العلمانية هي أخلاق مسيحية مجردة من عقيدتها. وأنه الالتزام المستمر بفعل الخير، والمفهوم بالمصطلحات المسيحية التقليدية، دون الاهتمام بتقنيات تعاليم الكنيسة. فإن الرغبة في أن نكون صالحين وفعل الخير يدعمها شعور متعاطف تجاه فكرة الله. «في المجتمع العلماني الغربي نتحدث عن الأعمال الصالحة، وعلى العموم فنحن نتعاون مع جيراننا والمحتاجين. لكننا لا نتحدث كثيراً في الأماكن العامة عن المسيحية.»⁽³⁴⁾

ويظهر أن ما أشار إليه سميث هو التفسير الفلسفي للعلمانية، وهو أنه يمكن للمرء أن يعيش على أفضل وجه من خلال تطبيق الأخلاق المنطقية، دون الإشارة إلى إله أو المفاهيم «الخارقة للطبيعة».

لقد كان يُعتقد منذ فترة طويلة أن العلمانية مسألة محسومة في بريطانيا. ولكن منذ أواخر الثمانينيات، أصبح الأمر غير مستقر على نحو متزايد، رغم أن الإسلام-الذي هو الدين الثاني في بريطانيا- لم يكن عاملاً مساهماً في حالة عدم الاستقرار. وقد عملت سلسلة من الأزمات الثقافية والسياسية - من قضية الآيات الشيطانية، والهجوم على نيويورك ولندن، وأزمة الرسوم الكاريكاتورية الدنماركية، على سبيل المثال لا الحصر، على وضع النقاش الوطني حول الدور العام للدين مرة أخرى إلى مركز الصدارة.⁽³⁵⁾

كما أن الصراع الديني، بين الأديان المختلفة (اليهود ضد المسلمين، الهندوس ضد المسلمين، البوذيون في ماينمار وسريلانكا ضد المسلمين، الشيوعية في الصين ضد المسلمين)، أكد بوضوح شديد إلى أن الدين (وتصادم الثقافات الدينية المختلفة) لهما أهمية كبيرة في سياسة العالم. ومع ذلك، فإن القضية أكثر تعقيداً: في الواقع، أن معظم القضايا والآراء السياسية تستند إلى القيم، وبالتالي في كثير من الأحيان على المعتقدات والمذاهب الدينية.

الخاتمة:

مصطلح العلمانية حَمَّال أوجه، فهو متحول تاريخياً، ومتغير سياسياً، ويحتمل وجوهاً كثيرة طبقاً للزمان والمكان، والمستخدم، والاستخدام. وكان للكلمة جذراً واحداً، ولكن فروعها متنوعة وأحياناً متطرفة. فقد بدأت فلسفية دينية، وأحياناً اجتماعية، وانتهت سياسية مذهبية، وأحياناً إلحادية. ونشهد حولنا اليوم انفصاماً بين النظرية والتطبيق، بين مواد الدستور العلمانية، ودسترة الإسلاموفوبيا في أوروبا. واليوم يعود الدين إلى جدول الأعمال الدولي بصيغ مختلفة، وقد يفرض نفسه عاجلاً أو آجلاً على ملف العلمانية، وأتوقع على الأقل أن ينجح في أن يكسو العلمانية بثوب التسامح!

وضَّح البحث باختصار غير مغلٍ، أصل كلمة «العلمانية» لغوياً واصطلاحياً، ومتى بدأ استخدامها تاريخياً في أوروبا. وألقى الضوء على البعد الديني للمصطلح، فأثبت أن المسيحية متجذرة في أوروبا رغم ندرة العاملين بها. أما نظرياً فالمصطلح سياسياً أوضح لأنه يشير إلى الفصل النسبي بين الدولة والدين، وعدم التمييز بين الأديان. ولكن البون شاسع بين النظرية والتطبيق، كما لاحظنا في أمثلة فرنسا وإنجلترا.

الهوامش:

(1) The Concise Oxford Dictionary of the Christian Church, Edited by: E. A. Livingstone, 2ed, Oxford University Press, Current online version 2013. eISBN: 9780191727214.

(2) Britannica Dictionary.
<https://www.britannica.com/dictionary/secularism>

(3) Merriam Webster Dictionary
<https://www.merriamwebster.com/dictionary/secularism#:~:text=Definition%20of%20secularism,Sentences%20Learn%20More%20About%20secularism>

(4) Cambridge Dictionary
<https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english/secularism>

(5) Oxford Learner Dictionary
https://www.oxfordlearnersdictionaries.com/definition/american_english/secularism

(6) منير البعلبكي، ورمزي منير البعلبكي، المورد الحديث، قاموس إنكليزي-عربي، دار العلم للملايين، بيروت، 2009، ص: 1044.

(7) Nakdimon Doniach, The Oxford English Arabic Dictionary of Current Usage, , Oxford University Press, 1972, P.1117.

(8) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوجيز، مصر، دار التحرير للطباعة والنشر، 1989، ص: 432

(9) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، مصر، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004، ص: 624.

(10) سامي العامري، العالمية طاعون العصر: كشف المصطلح وفضح الدلالة، سلسلة إصدارات المؤسسة العلمية الدعوية العالمية، ط1، 2017، ص: 52، 69.

(11) عبد الرحمن السليمان، تفكيك مصطلح العلمانية، مجمع اللغة العربية بمكة، على الشبكة العالمية، الإصدار الأول، مايو 2013م، ص: 137-178.

(12) Texte intégral de la Constitution du 4 octobre 1958 en vigueur
<https://www.conseil-constitutionnel.fr/le-bloc-de-constitutionnalite/texte-integral-de-la-constitution-du-4-octobre-1958-en-vigueur>

(13) A briefing paper on the relationship between church and state in the United Kingdom Published Tuesday, 12 October, 2021.

<https://commonslibrary.parliament.uk/research-briefings/cbp-8886/>

(14) Michael Rectenwald & Palgrave Macmillan, Nineteenth-Century Bri-

tish Secularism: Science, Religion and Literature (Histories of the Sacred and Secular, 1700–2000), London 2018, P.11.

(15) نفس المرجع، ص: 4-5.

(16) The Editors of Encyclopaedia Britannica, «secularism». Encyclopedia Britannica, 13 May. 2020, <https://www.britannica.com/topic/secularism>. Accessed 17 December 2021.

(17) Nick Danforth, Islam Will Not Have Its Own 'Reformation', Foreign Policy, 2 January 2015. <https://foreignpolicy.com/2015/01/02/islam-will-not-have-its-own-reformation>

(18) Jeanette Selma Jouili, Pious practice and secular constraints: women in the Islamic revival in Europe, Stanford University Press Stanford, California, 2015, p154.

(19) طه عبد الرحمن، بؤس الدهرانية، النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2014، ص: 12.

(20) Baruch Aba Shalev, 100 Years of Nobel Prizes, The Americas Group, USA, 2nd Ed, 2003, p124.

(21) جورج طرابيشي، الموسوعة الفلسفية العربية، المجلد الثاني، القسم الثاني، معهد الإنماء العربي، رئيس التحرير معن زيادة، ط1، 1988، ص914.

(22) وفقاً لقاموس Merriam-Webster، فإن تعريف اللاأدري Agnostic هو «الشخص الذي يرى أن أي حقيقة نهائية (مثل الله) غير معروفة وربما لا يستطيع معرفتها». بعبارة أخرى، الشخص اللاأدري «غير ملتزم بالإيمان بوجود الله أو عدم وجوده»، بخلاف الملحد Atheist الذي لا يعتقد بوجود إله. باختصار، إذا أجاب أحدهم على السؤال «هل الله موجود؟» بعبارة «لا أعرف»، ربما يكون محايداً، أما إذا قال «غير موجود» فهو ملحد.

(23) Humanism (الإنسانية) نظام إيماني قائم على مبدأ أن الاحتياجات الروحية والعاطفية للناس يمكن إشباعها دون اتباع إله أو دين Cambridge dictionary.

(24) Emmanuel Levinas (1906-1995) فيلسوف يهودي فرنسي لتواني الأصل ومعلق تلمودي. وكاتب العديد من التفاسير حول التوراة. درّس في السوربون منذ عام 1973، وقد عرض عام 1961 في مؤلفه «الكليّة واللاتناهي» Totalité et Infini أن حضور وجه الآخر ليس مدعاة ضرورة للصراع ولللعنف كما ذهب إلى ذلك وجوديّة سارتر، بقدر ما هي علاقة قبول. وفي هذا القبول بالآخر دون احتوائه في منظومتنا المعرفيّة تكمن إنسانية الإنسان.

Stanford Encyclopedia of Philosophy

- (25) Debating Europe, Is Europe a Christian continent? 22/6/2015
https://www.debatingeurope.eu/2015/06/22/christian-europe/#.YD4p_ZP7RN0, accessed 2/3/2021.
- (26) Philip Jenkins, God's Continent: Christianity, Islam, and Europe's Religious Crisis, Oxford University Press, USA, 2007, p4.
- (27) Berger, P.L., The Sacred Canopy, New York: Doubleday, 1967, p. 107.
- (28) MacIntyre, A., Secularization and Moral Change. Oxford: University Press.1967, p. 7-8.
- (29) Charles Taylor, What is Secularism, in Secularism, Religion and Multicultural Citizenship, Geoffrey Brahm Levey and Tariq Modood (eds), Cambridge University Press, 2009, pp vi-vii.
- (30) المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، بيان حول منهجية التعامل مع الشأن الإسلامي في أوروبا.
<https://www.e-cfr.org/blog/2021/02/09>
- (31) Ingrid Storm, Secular Christianity as National Identity: Religion, Nationality and Attitudes to Immigration in Western Europe, PhD, University of Manchester, 2011.
- (32) O'Brien, Peter, «Secularism.» In The Muslim Question in Europe: Political Controversies and Public Philosophies, Philadelphia, Temple University Press, 2016, p144.
- (33) Barry A. Kosmin & Ariela Keysar, Secularism and Secularity: Contemporary International Perspectives, Institute for the Study of Secularism in Society & Culture (ISSSC), 2007, p3.
- (34) Smith, Graeme, A short history of secularism. London: I. B. Tauris, 2008. p. 2.
- (35) Yahya Birt, Dilwar Hussain & Ataullah Siddiqui, British Secularism and Religion- Islam, Society and the State, Introduction: Predicament or Promise? Exploring Britain's Unsettled Secularism, Kube Publishing Ltd, Leicestershire, 2011, pp VI-VII.

